مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد10 /العـدد: 3 (2022)، ص: 865- 889

تجلّيات القَابليَّة للاستعمَار من خِلالِ صرَاع الأفكار عند مالك بن نبي.

Manifestations of the susceptibility to colonization through the struggle of ideas By Malek Bennabi

أمين طالبي[1]

[1]جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 (الجزائر)، am.Talbi@univ-setif2.dz

تاريخ الاستلام: 2022/03/29 تاريخ القبول: 2022/04/07 تاريخ النشر: 2022/10/08

ملخص:

تَروم هذه الدِّراسَة البحثيَّة إلى كشف مدَى حضُور الاستعمار من خلال الصراع الفكري في البلاد المُستعمرة، من منظُور المفكّر مالك بن نبي، فمن المعلوم أنَّ الاستعمار أشكالٌ مُتعدّدة، ولعلَّ الصِّراع الفِكري كمَظهر من المظاهر الباطنية للاستعمار، يجد إطاره الأوسَع في البلاد المَحكُومة بشبكَة من الإيحاءات، تُدْلي بها مَراصد القوى الاستعماريّة. لهذا، نبّه بن نبي، لوجُود ما يُعرف بـ"الصِّراع الفِكري" القائم أسَاسًا على عالم الأفكار، يستغله المُستَعمِر ليكُون ذا سلطان على الأفكار في البلاد المستَعمَرَة. و، من ثَمَّ، السَّيطرة على الأوضاع من خلال الدّراسة النَّفسية ليُدرِك مواطن الضُّعف والقُصُور لدى المُستَعمَر. هذا بالتَّحديد ما انتهجه المستعمر الفرنسي في الجزائر بحسب بن نبي، إذ استهدف عالم الأفكار، هذا الأخير الذي لطالما كان مجهولاً في البلاد المُستَعمَرَة التي تعيش حيثيات الصِّراع الفِكري وتُسجّل نتائجه السلبيّة في حياتها وأخلاقها دونَ أن تُدرك-أصلاً- أنَّ مَعركَةً قَذِرَة قَد مَرَّت بأرجائها، بل وتجهَل دقَّة التّخطيط الذي يُرسَم من أجل التَّحكُّم في مصير الشّعُوب عن طريق هَندَسة الأفكار.

كلمات مفتاحية: مالك بن نبي؛ الاستعمار؛ الصراع الفكري؛ البلاد المُستعمَرَة؛ القابلية للاستعمار.

Abstract: This research study aims to show how much the French colonization is present through the intellectual conflict in the colonized country from the perspective Malek Bennabi, That's why Bennabi has drawn attention to the existence of what's known as "intellectual conflict" which is essentially based on the world of ideas used by the colonizer to have power over the ideas in the colonized country, then to control the situations through the psychological study to figure out points of weakness of the colonized country. That's exactly what the French colonizer adopted in Algeria according to Bennabi, since it targeted the world of ideas. This latter, has been generally unknown in the colonized country that lives the merits of intellectual conflict and markes its negative results in its life and manners without even being aware that a dirty battle was happening around, and it doesn't even know the planning accuracy.

Keywords: Malek Bennabi, colonization, intellectual conflict, colonized country, susceptibility to colonization.

المؤلف المرسل: أمين طالبي،

1. مقدمة: ليس ثمَّة خلافٌ أنَّ الصِّراع أنواعٌ وأشكال، فهناك صراع القوة الذي يكون فيه السِّلاح أداة لفرض الهيمنة والخُضُوع على الشُّعوب المستعمرة؛ والصراع الفكري الذي يكون على مستوى الأفكار. ولا يخفى أنَّ النَّوع الثَّاني أخطر وأكثر وقعًا على الإنسان والمستعمَر، بيْدَ أنَّ الصِّراع الفكري من حيث هو سيطرة على الأفكار؛ تنعكس نتائجه على الوعي الفردي والبناء والاجتماعي، و، من ثمَّ، على الفعل السياسي.

ومن المعلوم أنَّ الاستعمار الفرنسي في الجزائر رغم اعتماده على الصراع المسلَّح؛ اعتمد أيضًا، على الحرب الفكريَّة. هذه الأخيرة، جعلته مُسيطرًا -بهذا

القدر أو ذاك- على البلاد المستعمرة وعلى أفكارها التي يُمكن -لو أُحسِنَ استثمارها- أن تمنحَ وعيًّا اجتماعيًّا وسياسيًّا. لهذا، يطرح مالك بن نبي في ثنايا مؤلفاته، قضيَّة الصراع الفكري في البلاد المُستعمرة، وكيف أنَّ الاستعمار الفرنسي أحكم قَبضته على عالم الأفكار في الجزائر، ليكون بحقّ زعيما للصِّراع الفكري يديره بذكاءٍ وحنكة عاليَّة الدِّقة. ومن الضَّروري في هذا الموضوع المعرفي، القول أنَّ مالك بن نبي، كان ينطق ويكتب في الموضوع عن تجربة شخصيَّة عاشها وعاش ويلاتها كطالب وككاتب يعالج قضايا أمّته. وعليه، فالتَّجربة الخاصَّة التي يعيشها المُفكِّر، تمنحه رؤية استشرافيَّة تحليلية لعالم الأفكار. و، من ثمَّ، يمكنه معرفة نتائج التَّحكّم في الصراع الفكري الذي عاشته ولا تزال تعيشه البلاد المُستعمَرة.

من هنا، فالصراع الفكري في نهاية المطاف -بحسب مالك بن نبي- هي استراتيجيَّة يتبناها الاستعمار للتَّحكم في عالم الأفكار وتوجيه الوعي الفردي والاجتماعي. و، من ثمَّ، التَّحكُّم في الفعل السّياسي بما يخدم مصالح الاستعمار؛ ناهيك عن التَّحكّم في الكاتب التَّقدمي والصحافة التَّقدميَّة في الخارج لينحازا إلى صفوف المستعمِر، وإيهام الرَّأي العامّ في البلاد المستعمَرة بالكفاح الفكري ومجابهة عمليات الاضطهاد في الجزائر والعالم الإسلامي؛ علاوة على قتل الأفكار وإفراغها من محتواها أو تحريفها عكسيًّا بما يُلاءِم مصالح الاستعمار. والتَّلاعُب بعالم الأفكار يكون -طبعًا- بمواجهة مصدر الفكرة أي المكافح والكاتب الصّحفي، ولا يكون ذلك بمواجهته مباشرة؛ إنما بعزله عن حلبة الصراع الفكري وتشويه مؤلفاته وكتبه لدى الرَّأي العام حتى ينعزل وأفكاره عن الطابع الاجتماعي للبلاد المستعمرة.

يمكن القول، أنَّ القابلية للاستعمار، في تقدير بن نبي، ليست سوى نتيجة حتميَّة للصراع الفكري الذي أفلح المُستعمر في القبض عليه من خلال العديد

من الآليات والاستراتيجيات النَّفسية والاجتماعية التي تُمارس على الأفكار، فتفقدها صبغتها ومحتواها التَّوعوي. و، من ثمَّ، يتم استغلالها في كل ما يخدم مصالح الاستعمار الفرنسي. وانتشار القابلية للاستعمار يشير إلى الإخفاق النَّفسي والاجتماعي والسياسي للبلاد المستعمرة.

وعليه، ففي ثنايا هذا الموضوع المعرفي لا يكفي أن نتساءَل؛ بقدر ما علينا أن نجرؤ على مُساءَلة التّساؤل نفسه**!** بأي معنى ساهم الصِّراع الفكري في تجلِّي الاستعمار الفرنسي حسب مالك بن نبي؟ وما هي استراتيجيات الاستعمار في التَّحكم في عالم الأفكار؟ وفيما تتمثَّل تمظهرات القابليَّة للاستعمار وتداعياتها على البلاد المُستعمرة؟

وللإجابة على هذه التَّساؤلات، وتناول الموضوع تحليلا واستدلالاً، اعتمدنا على المنهج التَّحليلي في تناول محتويات الأفكار التي تخصّ الموضوع؛ والمنهج التَّاريخي في الحفر المعرفي والمفاهيمي، تجنُّبًا لسوء الفهم والتَّأويل، ومناهج أخرى ثانوية تقتضيها الدِّراسة البحثية.

2. الصراع الفكري، دراسة في سيرة المصطلح ودلالة المفهوم

من المعلُومِ أنَّ البَحث في المواضيع الفِكريَّة والفلسفيَّة التي لها أثر على الإنسان عادَة ما تتعرَّض لسوءِ الفَهم والتَّأويل، كموضوع الحضارة، والثَّقافَة، والهوية، والاديولوجيا، على سبيلِ المثال لا الحَصر، تَجعُل الباحث فيها مُلزَمٌ -على الأقل منهجيًّا- بوضع الإطار المفاهيمي لهذه المواضيع، التي يمكن أن يساهم سوء فهمها في تعميق الصِّدام وتوسيع أفق الصِّراع. لهذا، الوقوف على سيرة المصطلح ودلالة المفاهيم، قبل الشُّروع في تحليلها، قد يُساعد على فكِّ الكثير من التّساؤُلات التي تَعتري الموضوع. و، من ثَمَّ، تناولها استشكالاً واستدلالاً.

1.2 الصراع والصدام قراءة في المفهوم والأبعاد: يدل لفظ الصِّراع في اللُّغة على عدَّة معاني، إذ يُقال صَرَعَه صَرعًا، أي طَرحَه أرضًا؛ ويُقال صَرَعته المنِيَّة؛ كما يُقال أيضًا، صَرعته الرِّيح بمعنى مصروع وصَريع (منظور، 1303هـ، صفحة 64) والصِّراع هو نزاع بين طرفين يُحاول كل منهما أن يتغلَّب على الطَّرَف الآخر، مُستعملاً في ذلك قوته الماديَّة. كالصِّراع بين الرياضيين؛ كما يمكن أن يتعلَّق الصِّراع بقوتين معنويتين تحاول كل منهما أن تحلّ محل الأخرى، (صليبا، 1994، صفحة 725) نظرا لذلك التَّعارُض القائم بين سلطتين متضادَّتين، فالصِّراع يُمكن أن يكُون نفسيا، أو اجتماعيا، أو اقتصاديًّا، أو سياسيًّا. (بليلطة، 2018، صفحة 131) وهو ليس سوى نزاع بين خَصمين أو أكثر لإثبات القوة والفاعليَّة، ومدى التَّحكم في زمام الأمور كصراع الملوك والأباطرة. وللوهلة الأولى، يُشير لفظ الصِّراع إلى ضرورة وجود قوة لتحقيق الغَلَبَة.

وعادَة من يُقارَب لفظ الصِّراع بالصِّدام -رغم اختلافهما في الحدَّة- فيقال في اللغة صدم الشَّيء صدمًا بمعنى ضربه ودفعه؛ ويُقال صدم الرجل غيره أي دفعه؛ وصَدَمه القول أي أسكَتَهُ، وتصادَمَت الآراء أي تضَارَبَت. (ناصر، 2017، صفحة 20) أمَّا في الموسوعة السياسية، فقد يحمل الصِّدام معنا اجتماعيا، إذ ينطلق من التَّضارُب في القيم والمصالح. وتحمل هذه الظَّاهرة موقعًا هامًّا في نظريات علم السياسة كنظرية صدام الحضارات The Clash of Civilisation التي أُشتهر استعمالها في القرن العشرين من طرف صمويل هنتنغتون (1927-2008) Samuel Huntington يريد من خلالها القول بأنَّ الحضارات في حالة صدام وإلى حدٍّ ما في حالة صراع. (ناصر، 2017، صفحة 21)

2.2 الفكرة، الإديولوجيا حفر في المصطلح والمفهوم:

الفكرة "idée" لفظ منقول من المفهوم اليوناني "idia" الدَّال على الصورة، أو الشَّيء المرئي أو مظهره الخارجي، أو نمطه أو نوعه أو صنفه، وأصل

المفهوم هو، الفعل اليوناني "idein" الذي يُمكن أن يدل على المعاينة والرؤية، والإدراك البصري، والنَّظر المميّز، والفهم. أمَّا دلالة "idée" فلسفيًّا فهي كل ما يُعقل أو ما يُحسّ؛ أو ما يُتمثَّل من الصورة المعقولة والثَّابتة والتي تكون مفارقة للواقع المحسوس، والمظهر و/أو البنية التي تُبصِر بحقيقة الشَّيء وماهيته. (النقاري، 2018، صفحة 147)

أمَّا الاديولوجيا **(**idéologie / ideology**)** فهو لفظ منسوخ على حاصل التَّركيب الإضافي من كلمتين هما: "idea" الذي يعني ما يعنيه مفهوم "idée" أي الفكرة؛ و"Logie" الذي تعني علم أو هو الملحوق موضع النظر والبحث. ويستعمل المفهوم "idéologie" فلسفيًّا بمعانٍ عدَّة أبرزها: التَّناول النَّظري لـ للأفكار " Les idées" باعتبارها وقائع معرفية مُشتركة من حيث مصدرها، ومن حيث القانون الضَّابط لها، ومن حيث علاقاتها بالعلامات التي تدل عليها، كالمواقف النَّظريَّة التي لا تولي العناية اللاَّزمة للتَّرابُط القائم بين التَّفلسُف والواقع المعيشي الفعلي الذي يُنجز فيه فعل التَّفلسُف؛ أو كالبحث النَّظري المعرفي الذي يتناول المعارف والمُدركات وملكات الإحساس والتَّعقُّل والإدراك؛ أو ربما النَّظر الانتقادي في مصدر المنتوج المعنوي والفكري؛ أو هو نسق من الاعتقادات يتشارك فيها عناصر أو جماعَة أو أفراد من جهة. أو عبارة عن نسق قيمي موجَّه لتحقيق تلاؤُم الجماعَة وتماسُكها. (النقاري، 2018، صفحة 149)

من هنا، يُمكننا القول أنَّ الاديولوجيا هي كل ما له علاقة بالأفكار من حيث هي وقائع منهجية ومعرفية، أو من حيث كونها مواقف نظريَّة مُترابطة -أو بالأحرى- مُتكاملة مع الواقع.

وكلمة اديولوجيا في الأصل، ابتكرها دستوت دو تراسي (1754-1836) Destutt de tracy في مذكرته حول ملكة التَّفكير، ويعني بها العلم الذي يهتمّ بدراسة الأفكار بالمعنى العام لظواهر الوعي، من حيث مزاياها وقوانينها، وهي «

مسَار فكري يتممه المفكِّر بوعي تامّ، والفكرويَّة مجموعة من الأفكار الحيَّة والمستقلَّة الخاضعة لقوانينها ولمسار الوجود المادِّي والتَّفكير البشري.» (لالاند، 2001، صفحة 611)

وإذا بانت لنا سيرة المعاني اللغويَّة وتجلَّت لنا المفاهيم -من خلال ما سبق- نحاول أن نسرف نظرنا إلى معنى الصِّراع الفكري، هذا المفهوم الذي يُشير للوهلة الأولى إلى وجُود صراع على مُستوى الأفكار، أو ربَّما وجود تَناطُح بين فكرتين مُتعارضتين على مستوى المبدأ والغاية. واستعمل المفكر الجزائري مالك بن نبي، مصطلح "الصراع الفكري" لوصف نمط آخر من الصِّراع الفرنسي الجزائري في البلاد المستعمرة وهو صراع على مُستوى العُقُول والأفكار، والأقلام، والإعلام يقوم على تأطير وعي الجمهُور والرأي العامّ.

ذلك أنَّ الأفكار لها وقعُها الخاصّ لدى الأفراد، وفي المجتمعات الإسلامية والبلاد المستعمرة تحديدًا، والمشكلة -في نهاية المطاف- مشكلة أفكار. و، من ثمَّ، فإن مسيرة الحضارة والأفكار تسير بالمجتمع قوة وضُعفًا، دفعًا وهوانًا، أو صُعودًا وهبُوطًا تبعًا لدرجة تمحوره حول الأفكار أو حول الأشياء المحيطة به. والأبعد من ذلك، فالحضارة الإسلاميَّة باتت -بهذا القدر أو ذاك- تستوي على ظهر التَّاريخ كلما كانت في توازُنٍ فعَّال على مستوى الأفكار المطبوعة الأصليَّة. وإذا ما فقدت هذه الأفكار نماذجها الأصلية، أصابها الخلل فتنقلب إلى ضدّها شرودًا وانحرافًا. (بن نبي، 2016، صفحة 7)

ولعلَّ أي خلل على مستوى الأفكار يُمكن أن ينعكسَ سلبًا على الإنسان والحضارة. هذا بالتحديد ما استغله الاستعمار في البلاد المستعمرة أي اللَّعب على أوتار الأفكار التي تجد إطارها في البلاد المستعمرة المحكومة بشبكة من الإيحاءات تُدلي بها مراصد الاستعمار لتصنعَ مُتقلِّب الأحداث في العالم الإسلامي.

3.عالم الأفكار بين القيمة ومراصد الاستعمار

لطالما كانت الأفكار العصب الذي لطالما أشعل ولا يزال يساهم -بهذا القدر أو ذاك- في إبرام نيران الحروب والنزاعات بين الأمم والشُّعُوب، بَيْدَ أنَّ التَّركيز على الأفكار ومن ثَمَّ، فهمها يجعل من الفكرة نبتًا ضَروريًّا يُظهره الواقع. وعليه، تُبَثُّ الفكرة في الذات وتتشرَّب من وعي الجماهير المحيط بها. (محمد ابو قاسم، 2004، صفحة 46)

1.3قيمة الأفكار في المجتمع الإسلامي: من المعلومِ أنَّ الفكرة لها وقعها الخاصَّ على العقل الإنساني والنفس البشريَّة، ومن ثمَّ، أهميتها في بناء وتشييد الحضارة، ذلك أنَّ العالم يحتوي على أفكارٍ رائدَة هي بمثابة أنموذج "Paradigm" يرثها جيل عن جيل سابق ويورّثها للجيل الذي يليه، وأيضًا، يحتوي العالم، على أفكار عمليَّة يواجه بها كل جيلٍ الظُّروف التَّاريخيَّة الخاصَّة بتاريخه. أمَّا الأولى (الأفكار الرَّائدة) فهي مخزونة في السلوكيات الأخلاقيَّة؛ وأمَّا الثَّانية (الأفكار العمليَّة) فهي التي توجّه نشاطه، أو قُل أنَّها وسيلته التّقنيَّة. من هنا، فعالم الأفكار يمارس داخل مجتمع مهمة التكامل بين الأفكار والأشياء التي تغيّر الإنسان. (بن نبي، 2016، صفحة 57)

وعليه، يمكن القول، أنَّ عالم الأفكار بات -بهذا القدر أو ذاك- رهانًا لصقل الإنسان، ذلك أنَّ الكلمة و/أو الفكرة لمن روح القدس، إنَّها تساهم إلى حدٍّ ما في خلق الظَّاهرة الاجتماعيَّة، وهي ذات وقع شديد في ضمير الفَرد، إذ تتغلغل لقلبه فتستقر معانيها فيه لتحوله إلى إنسان ذو مبدأ ورسالة. لهذا، فالكلمة التي يطلقها الإنسان تستطيع أن تكون عاملاً من العوامل الاجتماعيَّة فحين تثير عواصف في النّفوس فإنَّها تساهم في تغيّير الأوضاع. (بن نبي، شروط النهضة، 2017، صفحة 23)

ذلك أنَّ المجتمع يقوم -في تقدير مالك بن نبي- على عوالم ثلاث: الشَّيء؛ الشَّخص؛ الفكرة، والأفكار هي العامل الذي يُميّز المجتمع عن سواه، فالمجتمع المُتخلِّف ليس مَنقُوص من الوسائل الماديَّة، وإنَّما موسوم بافتقار في الأفكار وفاعليتها، ويتجلَّى هذا الافتقار في طريقة استعمال المجتمع للوسائل الماديَّة المتوفرة لدية. والأبعد من ذلك، فقيمة الأفكار تظهر أيضًا، في المجال السِّياسي والاقتصادي على شكل موانع كابحة، تتوافق والخصائص النَّفسيَّة والاجتماعيَّة التي يتميَّز بها العالم الإسلامي؛ (بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 2016، صفحة 36) ناهيك عن وجود علاقة جدليَّة بين الأفكار والأحداث الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة. (بن نبي، من أجل التَّغيير، 2015، صفحة 13)

وليس ثمَّة خلافٌ، في أنَّ انقطاع الأفكار والأحداث الاجتماعيَّة يؤثر سلبًا على تطور المجتمع، ولعلَّ قيمة الأفكار ودورها السياسي والمجتمعي. وأيضا، خطورتها على الصَّعيد الاجتماعي، قد انتبه إليها الفيلسوف اليوناني سقراط (399-470 ق.م) Socrates حينما لاحظ وجود من يدَّعي الفصاحَة في المجتمع الأثيني. لهذا، فرَّق سقراط بين ممارسو الجَدَل الذين يبحثُون عن الأفكار الصَّحيحَة (أو الأفكار المُقنعَة بتعبير سقراط)؛ وبين ممارسُو الفصاحَة، أولئك الذين يعتمدون على المُحسِّنات اللَّفظيَّة في الخطاب. (بن نبي، من أجل التَّغيير، 2015، صفحة 14)

تظهر قيمة الأفكار ومدى فاعليتها وخطورتها على المجتمعات، من خلالِ رفض سقراط منهج الحركَة التي تعبّر عن تلاعبها بالألفاظ، والمقصُود هو الحركة السّفسطائيَّة "Sophisme" التي ظهرت في أثينا خلال النّصف الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد تحاول تخريب العقُول. ونجد أيضًا، في ذات الصَّدد، أنَّ أفلاطُون **(**427-347**)** Platon عبَّر عن رفضه لهذه النَّزعَة التي تتلاعَب بالألفاظ والأفكار وذلك بطردهم من جمهوريته الفاضلة.

والأبعد من ذلك، أنَّ الحضارة هي -في نهاية المطاف- نتاج فكرة جوهريَّة تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التَّحَضُّر ليدخل التَّاريخ، فيبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقًا للأنمُوذَج الأصلي لحضارته، فهو متجذِّر في محيط ثقافي أصلي يحدّد كافة خصائصه التي تميّزه عن الثَّقافات والحضارات الأخرى. فدور الأفكار في حضارة ما لا يقتصر على مجرّد الزِّينة والزَّخرفة، بل دورها وظيفي فعَّال. باعتبار الحضارة هي مزيج بين عالم الأفكار وعالم الأشياء. (بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 2016، صفحة 41) ونحن إن قررنا -مثلا- مقارنة تطور اليابان التي ارتقت من عوالم الأشياء إلى عالم الأفكار، بتطور الشعوب الإسلامية، قلنا إنَّ هذه الشُّعُوب إنَّما دخلت عالم الأشياء ولم تدخل بعد في عالم الأفكار. ولعلَّ إسقاط هذا الاعتبار على التَّطور الفكري للعالم الإسلامي يكشف أنَّ المثقَّف المسلم فهم التَّطور كشكل من الأشكال الماديَّة. وإنّه لمن المؤسف أنَّ الالتقاء بين عالم الأشياء وعالم الأفكار لم يعرف طريقه في العالم الإسلامي. (بن نبي، فكرة كومنويلث إسلامي، 1990، الصفحات 50-51)

2.3 الفكرة ومراقب الاستعمار: لما كانت الفكرة لها قيمة وأصَالة في المجتمع الإسلامي، والحضارة أخذ الاستعمار يترصّدها (يترقّبها) ويستغلّ ضعف القيمة الاجتماعيَّة. فجهل شعب ما بقيم الأفكار التي يملكها يجعل الاستعمار -أو محترفو الصِّراع الفكري- يستعمل أجهزة مراقبة لترصُّد حركة الأفكار، بيْدَ أنَّ الاستعمار ليس من هواة الرَّقائق الفكريَّة أو المولعين بها، ولا هو من زارعي الأفكار أو مُكتسبيها، بل يُحافظ على احتكاره للأفكار واستعمالها لصالحه، وقد تمكَّن من وضع جهاز كامل من المرَاقب التي تتبَّع الأفكار وتترصَّد تحركاتها باهتمام عمليّ بالغ، ذلك أنَّ الرّهان يتعلَّق بحماية واحتكار تلك الأفكار لنفسه بحيث يحاول -فيما بعد- صياغتها على طريقته الخاصّة يجهلها العالم الإسلامي. (بن نبي، فكرة كومنويلث إسلامي، 1990، صفحة 55)

وعليه، فالجهاز المفاهيمي، و، من ثمّ، الأفكار في العالم الإسلامي، فضلا عن كونهما ذات قيمة بالغة، يبدو أنَّ ضعفها يجعل المُستَعمِر يستغلّها لصالحه، فتراه يستعمل ستائر تَحُول ببين الأفكار والأحداث الاجتماعيَّة خُصُوصًا في الإطار السِّياسي، وفي كثيرٍ من الأحيان يعملون على تجهيزِ أيادٍ خبيرَة لتقطع كلّ اتّصال من شأنه أن يعزل الأفكار، ويقطع كل حوار يُمكن أن يقوم بين رجل السّياسَة ورجل الفكر، (بن نبي، من أجل التَّغيير، 2015، صفحة 15) ويمتلك الاستعمار في ذلك فلسفته الخّاصّة التي تتمثَّل في التَّخلُّص من الأفكار التي تضايقه فيُحرفها عن مراميها بتوجيهها خارج المدار الذي يريد أصحابها إبقاءها فيه. (بن نبي، فكرة كومنويلث إسلامي، 1990، صفحة 55)

والأكثر من ذلك كله، أنَّ الاستعمار على معرفة تامَّة بكل تَفاصيل الجهاز المفاهيمي والفكري، فهم يُجَنِّدُون أخصَّائيين في مختبراتهم النَّفسيَّة، ويستعملون وسائل استعلام للإحاطة بكل الثغرات النَّفسيَّة للمجتمع الجزائري. بل ويمتلكون منهجًا يتيح لهم استبدال قيمة فكرة ما بفكرة مُضادَّة لها تمامًا. (بن نبي، فكرة كومنويلث إسلامي، 1990، الصفحات 55-56) لهذا، فالأمّة التي لا تعتني بالفكرة من حيث هي قيمة اجتماعية ونفسيَّة وحضَاريَّة، تجعل الآخر/ المستعمِر مُستثمرا فعليًّا لهذه الأفكار، مُستعملاً في ذلك استراتيجيات وتجهيز أيادٍ خبيرة في علم النَّفس والاجتماع، للإحاطة بالثَّغرات النَّفسيَّة للمجتمع. و، من ثمَّ، التَّلاعُب بعالم الأفكار والحَدِّ من فاعليتها النَّفسيَّة والاجتماعيَّة.

هذا بالتَّحديد ما يُمكن تسميته بالصِّراع الفكري، الذي تستعملُه القوى الكُبرى وتدَّعي من خلاله السَّيطرة العالميَّة. هذا النَّوع من الصِّراع الذي بقي مجهولاً لدى شُعُوب العالم الثَّالث لا يعرف شيئًا عن الخاصيَّة القوية للصِّراع الفكري الذي يُطلقه الاستعمار في البلاد التي خرج منها بعد استعمارها وتدميرها، عبر مناورات يُمارسها الاستعمار للانتقاص من عالم الأفكار وقتل فاعليتها في البناء

الاجتماعي مع جهل الضَّحيَّة بهذه المناورات. (بن نبي، من أجل التَّغيير، 2015، الصفحات 15-16) وإنَّه لمن المؤسف أنَّ معركة الأفكار باتت -بهذا القدر أو ذاك- تجتاح العالم بصورة عامَّة، والعالم الإسلامي بصورة خاصَّة، فتكون أفكارنا خاضعة خُضُوعًا تامًّا من قِبل من يفهم حقيقة الأفكار ويُحسن استغلالها سياسيًا. (بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 2016، صفحة 127) وبهذا، يكون الرِّهان هو الأفكار ومن أحسَن السَّيطرة على عالم الأفكار، أفلح في السَّيطرة على المجال الاجتماعي والسياسي.

4.الصراع الفكري في البلاد المستعمرة معالمه وتمظهراته

من الواضح أنَّ الأفكار لها وقعها وشأنها في بناء المجتمعات وتشييد الحضارات، لدرجة أنَّ الفكرة باتت -بقدرٍ أو بآخَر- تصنع الحَدث في عالم السِّياسَة يستغل المُستعمِر هذه الأفكار، بعد ترصُّدها فيتحكَّم في الأفكار والجماهير تحت ما يُسمَّى بالصِّراع الفكري.

1.4 المعالم الكُبرى للصّراع الفكري:

من المفيد التَّنبيه، أنَّ الصِّراع الفكري في العالم الإسلامي، يقوم على قاعدة عامَّة مفادُها أنَّه عندما يطرح المُسلم -أو بعضًا من المسلمين- قضيَّة ما تهمّ مجتمعهم، فإنَّ هذه القضيَّة تكون قد طُرحت، أو ستُطرح عاجلاً، في أوسَاط المُختصِّين في الصِّراع الفكري تحت إشراف الاستعمار. فلمّا يتقدَّم أحدهم بحلٍّ للقضِيَّة التي طُرِحَت، يتسارع هؤلاء المختصِّين لدراسَة هذا الحلّ المُقدَّم! فإذَا كان خاطئًا زادوا في عُمق الخطأ بشتَّى السُّبُل؛ أمَّا إذا كان فيه ما يُفيد حاولوا بكل قوتهم التَّقليل من شأنه وقيمته وإضعاف فائدته المرجُوَّة. (بن نبي، إنتاج المستشرقين، 1969، الصفحات 14-15)

معنى ذلك أنَّه كلّما لاحَت الأفكار وظهرت بوادر الحلول في العالم الإسلامي؛ ظهر في الوقت نفسه مجهر هؤلاء الأخصائيين، فيلتقط الأفكار على الفور ويجري

عليها كل التَّحليل والتَّشريح والتَّقطيع حتَّى يتلاشى مفعُولها الاجتماعي، ومن ثمَّ، تيسيرها لصالح الاستعمار. وليس ثمَّة خلافٌ أنَّ الأفكار تصنع الفارق في المجتمع، فإمَّا أن تكون مُتَّجهة إلى الأمام والمستقبل فتعمل على تطوير المجتمع؛ وإمَّا أن تتجّه إلى الخلف تَقهقُرًا فتزيد من عمق الأزمات الاجتماعيَّة. هذا العمل الفتَّاك يحدث على مرأى العين في كلّ تفاصيلنا الفكريَّة والسياسيَّة والاجتماعيَّة. (بن نبي، إنتاج المستشرقين، 1969، صفحة 16)

يمكن القول مما سبَق، أنَّ الصِّراع الفكري يتمثَّل في استهداف عالم الأفكار وتشويهها بذاك القَدَر الذي يجعلها تتحوَّل إلى حلبَة صراع في المجتمع العربي خاصة والإسلامي عامة، ويقوم منطق هذا الصِّراع على التَّلاعُب بمحتوى الأفكار التي تحمل حُلولا وفائدة للمجتمع، فيتمّ تفريغها من مُحتواها وإضعاف روحها لتتحوَّل -بفعل فاعل- إلى أفكار جوفاء خاويَّة لا تفيد في شيء.

ولعلَّ من الأمثلة التَّوضيحيَّة للصِّراع الفكري، يطرح المفكّر مالك بني نبي حادثة المؤتمر الإسلامي للعمال الجزائريين بأوروبا، وقد قدَّم مالك بن نبي مشكلة حول "الدّيمقراطيَّة كشعار دستوري في الجزائر"، غير أنَّ المختصِّين في الصِّراع الفكري -ويال مُكرهم- وجَّهُوا دعوة إلى مستشرقة ألمانيَّة تُدعى زيغريد هونكه (1913-1999) Sigrid Hunke وكتابها المعنون بـ "شمس الله تشرق على الغرب" لعرض ما فيه من تمجيد للحضارة الإسلاميَّة. من هنا، انتقل المؤتمر من موضوع المشكلات الاجتماعية؛ إلى موضوع أبعاد وأمجاد الماضي للحضارة الإسلاميَّة. وقد قام القائمون على المؤتمر بتكريم السّيدة. (بن نبي، إنتاج المستشرقين، 1969، صفحة 17) وبإمكان هذه الحادثة أن تكشف عُمق الصِّراع الفكري عبر جانبين اثنين: جانب حساسية الجماهير المسلمة اتّجاه أمجاد ماضيها؛ وجانب إمكانية استغلال هذه الحساسيّة في تعليب الجماهير وإبعادها عن حاضرها (بن نبي، إنتاج المستشرقين، 1969، صفحة 18)

من خلال الحدث الذي طرحه مالك بن نبي، أنَّ أمواج الصِّراع الفكري محتدمة بذلك القدر الذي يجعل الجماهير تمجِّد ماضيها وتسرف النَّظر عن حاضرها ومستقبلها، ويُمكن أن نجد علاقة وطيدة بين الاستشراق والصِّراع الفكري، باعتبار هذا الأخير آلية من الآليات التي استعملها -ولا يزال يستعملها- المستشرقون في دراسة العالم الإسلامي.

2.4 مظاهر الصراع الفكري في البلاد المُستعمرة:

حتى تتضح مَسرحيَّة الصِّراع الفكري في البلاد المستعمرة، ينبغي -على الأقل- الرجوع نصف قرن إلى الخلف، تحديدًا أين بدأ الوعي الإسلامي والشَّعب الجزائري يستيقظ من سباته العميق، ولعل هذا الاستيقاظ قد ساهم فيه -بقدرٍ أو بآخَر- الشَّيخين الوقُورين صالح ابن المنها وعبد القادر المجَّاوي، كأوَّل بطلين في الصِّراع ضدَّ الخرافات والدَّراويش والمرابطين، باعتبارهما في طليعَة المصلحين (بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، 2013، صفحة 15) غير أنَّ الاستعمار الفرنسي، عمل على إبعاد الشَّيخين ومعاقبتهما بمصادرة مكتبتهما الثَّمينة، وتحويل الشَّيخ المجَّاوي من منصبه بقسنطينة إلى العاصمة، حتَّى يستمرَّ السُّبات وسط الشعب الجزائري، ومن ثمَّ، استفحال الخرافات والدَّراويش (بن نبي، شروط النهضة، 2017، صفحة 25) ومن الضَّروري التَّنبيه أنَّ الاستعمار يعلم جيّدًا أن ظهور الشَّيخين كان لهما دويّ في البلاد كفكرة مُتجسِّدة في عقل المجتمع الجزائري. لهذا، بقي المستعمِر يترصَّد مُجريات الأحداث من بعيد محاولاً التَّحكُّم في زمام الصِّراع الفكري عبر إقصاء الشَّيخين من المشهد العامّ. دون اللُّجوء إلى وسائل القوة.

الظَّاهر أنَّ الاستعمار يجتهد في امتصاص القوى الواعيَّة في البلاد المُستعمرة، وذلك عبر إقصاء الشَّيخين المُصلحَين من معركة الوعي، حتَّى لا يتحوَّل الوعي لفكرة مُجرّدة تستقر في رحم الشَّعب، فيصعُب مكافحتها والحدّ منها.

وعليه، فالاستعمار لن يستعمل هنا وسائل القوة؛ بقدر ما سيحاول استعمال إقصاء الوعي بطرق أخرى ملائمة وأكثر مُرونة. ويستعين من أجل ذلك، بخريطة نفسيَّة للعالم الإسلامي فيجري عليها التَّعديلات اللّازمة يقوم بها رجال مُختصُّون مُكلَّفون برصد الأفكار يواجهون مُستويات وطبقات الوعي في البلاد المستعمرة. (بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، 2013، الصفحات 16-17)

ومنهجيّة الاستعمار في الصراع الفكري، تتمثَّل في استغلال جَهل الجَماهير لينشئ حول الفكرة منطقة فراغ وصَمت من أجل عزلها عن المجتمع، ومن ثمَّ، إسدال الظَّلام على الوعي والضَّمير الشَّعبي من خلال التَّحكم في الأفكار (بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، 2013، صفحة 19) فالمستعمِر هو المُنشِّط الفعلي للصراع الفكري والمَعنوي في البلاد المستعمرة. هذا الصراع القذر الذي ستكون عواقبه وخيمة -فيما بعد- على الشعب والبلاد المُستعمرة (بن نبي، العفن، 2007، صفحة 13) وينبغي أن نعترف هُنا، أنَّ المجتمع لا يمتلك أي وقاية اتجاه هذه المناورات الفكريَّة التي يقوم بها الاستعمار للانتقاص من أفكارنا، وإفقادها فاعليتها في البناء الاجتماعي (بن نبي، من أجل التَّغيير، 2015، صفحة 16)

ومن الضَّروري القول، أنَّ الصِّراع الفكري أخطر بكثير من الصِّراع المُسلَّح ذلك أنَّ الأول يقوم على الأفكار، بحيث يكون فيها المُستعمِر مُتستِّرًا -بهذا القدر أو ذاك- خلف الظَّلام الذي يُحيط بحلبة الصِّراع الفكري؛ بينما الثَّاني (الصراع المُسلَّح) يكون صراعًا ظاهرًا ومُباشرًا.

ويُشخِّص مالك بن نبي نتائج الصِّراع الفكري في مُشكلتين هما: كيف السَّبيل لإنشاء أفكارٍ فعَّالة في المجتمع؛ وكيف نفهم أسلُوب الاستعمار في الصِّراع الفكري حتى لا يكون سُلطانًا على أفكارنا، فحتَّى لو وُجدت الأفكار فإنَّها لن تستطيع أن تؤسِّس للوعي، لأنَّ الأفكار مُخترقَة بذاك القدر الذي يجعلها تؤثِّر

ديناميكيًّا في أسلوب الحياة الاجتماعيَّة، ونحن إن تمعَّنَا في القيمة الخاصَّة بهذه الأفكار المُخترقَة وجدنا أنَّها تحمل على المستوى النَّفسي -تحديدا- صَدمَةً نَفسيَّة للشّعب الجزائري. والاستعمار، حسب مالك بن نبي، يعلم جيّدًا أنَّ الأفكار تمنح قيمة ثورية، وتورِث اندفاعًا اديولوجيًّا ووعيًّا جديدا يهبّ على البلد. (بن نبي، من أجل التَّغيير، 2015، صفحة 18)

ومن المعلوم أنَّ تحكُّم الاستعمار في عالم الأفكار في البلاد المستعمرة، يجعله يعزل نفسيًّا الصّحفي والكاتب التَّقدُّمي الذي يتناول عالم الأفكار من الخارج، ناهيك عن عزل المثقَّف العربي الذي يكافح الاستعمار ضمنَ جَبهة وطنيَّة، فيجهل هذا المُثقَّف أن معركة فكريَّة قذرة تحاك في الخفاء، لأنَّه معزول عنها فيجد نفسه في وضع الفدائي الذي يخوض المعركة على حسابه الخاصّ دون أطرافٍ تُموّله! من هنا، وبعد قيام ثورة 1952 في القاهرة، تزايدت حدَّة الصِّراع الفكري في البلاد المُستعمرة على إثر حوادث القاهرة، إذ أبدَى الضَّمير الشَّعبي الجزائري والرَّأي العامّ اهتمامًا مُتزايدا حول قضايا الإصلاح الزِّراعي والملكيَّة باعتبارها من الأهداف الأساسيَّة التي سجَّلتها الثَّورة المصريَّة، وسُرعان ما تفطَّن المستعمِر لوجود فكرة جديدة وسط الجماهير، فاستهدَف الاستيلاء على التّراب وتحطيم طبقة الفلاَّحين، وبالتَّالي، وأد الفكرة قبل أن تتحوَّل إلى رأي عامَّ يؤطِّر وعي الشَّعب. (بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، 2013، صفحة 22)

وفي حَلبة الصِّراع الفكري يستعمل المُستعمِر إستراتيجية ضرب كلّ قوة مُناهضَة له؛ وتحويل كل الظُّروف والأفكار لصالحه، كعاملين يحدّدان إستراتيجيَّة الاستعمار في الصِّراع الفكري في البلاد المُستعمرة. والأبعد من ذلك، أنَّ المُستعمِر يحول -بكل الطُّرق الممكنة- بينَ الفكر والعمَل السّياسي حتى يبقى الأوّل (الفكر) غير مُثمر؛ والثَّاني (العمل السياسي) أعمى. ويتَّبع الاستعمار في ذلك أحد الألعاب الاسبانية الشَّهيرة. تقوم هذه اللّعبة على التَّلويح بقطعة قماش أحمر أمام

ثورٍ هائج في حلبة الصراع، ليزداد هيجان الثَّور فيهاجم على المنديل الأحمر بدلا من مهاجمة الذي يُلوِّح بالمنديل! (بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، 2013، صفحة 29)

معنى ذلك أنَّ الاستعمار يستمر في استفزاز الشَّعب المُستعمَر-الذي يجهل أصلا ماهيَّة الصِّراع الفكري- حتى يُثير غَضَبه، من ثمَّ، يُغرقه في حالة من التنويم فاقدًا لشعوره عاجزًا عن إدراك الحقيقة ويستمِّر المستعمِر، في التَّلويحِ بالمنديل الأحمر (الأفكار الوهميَّة) على الشَّعب، حتّى لا يكون للشَّعب المستعمَر فرصة للتَّفكير والتَّدارُك. لأنَّ الغُموض أصبح المكوِّن أسَاسي للصِّراع الفكري.

ومن المهمّ أن نُشير أنَّ هدف الاستعمار من الصِّراع الفكري ليس الأشخاص، إنَّما الهدف هو تحطيم الأفكار -أو بالأحرى- دفنها حتَّى لا تؤدِّي مفعُولها في توجيه الطَّاقة الاجتماعيَّة في البلاد المستعمَرة. لهذا، لا يلجأ الاستعمار للنَّيل من حياة المُكافح بل إنَّه يشعر بالخيبة لموت المُكافح لأنه -وفي الكثير من الأحيان- موت المُكافح حياة لأفكاره! ويظهر ذلك جليًّا عند وفاة المُكافح عبد الحميد ابن باديس، زعيم الفكرة الإصلاحيَّة التي كانت فكرة مُتجسدة، وبموته تحوَّلت لفكرة مُجرَّدة ينبغي عزلها وتشويهها. ومهما يكن، فإنَّ الاستعمار يحاول دائمًا عزل الأفكار وذلك عبر إستراتيجيتين هُما: استعمال كل السُّبُل الممكنة حتَّى ينفر الرأي العامّ من أفكار المُكافح؛ حتَّى ينفر المُكافح من أفكاره فيشعُر بأنَّ كفاحه مُجرَّد عَبث. (بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، 2013، صفحة 37)

والإستراتيجيّة نفسها، طُبقَّت على كتاب شرط النَّهضة لمالك بن نبي، فبعد صُدور الكتاب، أخذ الاستعمار يُثير تيارات مَضادَّة مُتمثلة في ردود الأفعَال على الكتاب، فكان الردّ الأوّل في جريدة جمعية العلماء المسلمين في مقالين يصف صاحبهما الكتاب في مُجمله مُقتبسٌ من مقالات سبَقَ أن نُشرِت في جريدة فرنسيَّة -وكأنَّه يُحاول القول، أنَّ الكتاب في مُجمله يعبّر عن لسان حال الحكومة

الفرنسيّة- أمَّا الردّ الثَّاني فكان في جريدة حزب الوطن، في مقالين يتظاهر صاحبهما بنقد مضامين الكتاب؛ في حين أنَّ الردَّ الثَّالث كان في جريدة الحزب الشيوعي الجزائري إذ وصفَت الكتاب على أنَّه نالَ رضا المُستعمر الفرنسي، حتى لا تتمَّ قراءَته من قِبل الطَّبقة المُثقفة في الجزائر؛ ناهيك عن موقف الصَّحافة التَّقدميَّة التي لم تُعلِّق نهائيًّا عن الموضُوع، فكان صَمتُها من ذهَب بالنِّسبة للاستعمار (بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، 2013، الصفحات 38-39)

5. تجليات القابلية للاستعمار وتداعياتها

من الواضح أنَّ المستعمِر الفرنسي مُتخصص في الصّراع الفكري، إذ أحكم قَبضَته على عالم الأفكار في البلاد المُستعمرة فيدير الأفكار لصالحه وهو بذلك يُطبِّق -في كفاح الشُّعُوب المُستعمَرَة- التَّخطيط من مُستوى كفاحهم الاديولوجي، وذلك بفصم الوحدة الشَّاملة التي تُضفي على الكفاح نوعًا من القداسَة وتهبه قيمة خلقيّة عليا تحقق الأهداف السّياسية المرجوَّة. ويحاول بشتَّى الطُّرُق الممكنة تحويل المعركة التي تنشأ بينه وبين القوى التَّحرريَّة، إلى معركة أهليه ذات طابع فكري اديولوجي، ومن ثمَّ، يُلقي كل الأضواء المُشوِّهة على الكتاب الذي صدَر من أجل تشويهه فيُبقي النَّشاط السّياسي أعمى والأفكار دون جَدوَى. (بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، 2013، الصفحات 41-43)

والأبعد من ذلك، فالهدف الذي يرمي إليه الاستعمار هو « تكوين نخبة مزيّفة من المُثقفين مَقطوعة عن الجماهير الشَّعبيَّة، بحيث يشعر أولئك المُثقَّفون بأنَّهم غُرباء عن ذويهم، فتنقطع صلتهم بأبناء البلاد ويتنكّرون للتَّقاليد، ويتشَّبهون بأسيادهم، ويُصابون بالتَّبعيَّة الفكرية للمُستعمِر. (الإبراهيمي، 1972، صفحة 17) والمؤسف -حسب بن نبي- أنَّ الصراع الفكري، و، من ثمَّ، التَّبعيَّة الفكرية للمُستعمِر يفتح على البلاد المستعمَرَة دَورة عهد جديد تتمثَّل في سيطرة

أنموذج القابلية للاستعمار (بن نبي، المسألة اليهودية وجهة العالم الإسلامي 2، 2015، صفحة 18)

ويتأزَّم الوضع أكثر فأكثر حينما نبَّه مالك بن نبي إلى وجُود ما يُعرف بالقابليَّة للاستعمار، كإحدى الظواهر التي تؤثّر في الصّراع الفكري في البلاد المُستعمَرة. لكن، المؤسف أنَّ المُستعمِر كان يعد -في الوقت نفسه- خطّة لمقاومة أفكار هذا الرجل التي كانت تُنشر حينئذ في القاهرة، باستعمال "مرآة الكهف"، وهي قاعدة بصريّة، تُطبَّق أيضًا على الإطار العقلي والمستوى الفكري. وبعبارة أخرى، أنَّ هذه العمليَّة تُجرى في الواقع على تشويه صاحب الفكرة، لتكون النتائج -فيما بعد- هي تشويه الأفكار. (بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، 2013، الصفحات 48-51) ناهيكَ عن نشر ترجمة عربيَّة لكتاب بن بني، دون علمه، وإرفاق التَّرجمة بنبذة عن المؤلّف، قيل فيها أنَّ المؤلِّف (مالك بن نبي) كاتب فرنسي اعتنق الإسلامي (بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، 2013، صفحة 54)

فالأزمة، تكمن تحديدًا في أنَّ الاستعمار يُحكم السَّيطرة على عالم الأفكار في البلاد المُستعرة، من خلال السيطرة على الكفاح الفكري ومصدر هذا الكفاح، ولعلَّ ما حدَث لملك بن نبي وكتبه يُلخِّص مدى شيطنة المستعمر وتحكمه في الصراع الفكري.

لهذا، فالمشكلة تكمن أيضًا، في الخَلل على مستوى التَّركيب النَّفسي الذي أُصيب به المجتمع في أعماقه جرَّاء صراع الأفكار، فالقابلية للاستعمار -حسب مالك بن نبي- تولد كنتيجَة لذلك الخَلل النَّفسي الذي استفحَل في المجتمع الجزائري، (بن نبي، مشكلة الثقافة، 1984، صفحة 36) وأسباب تفشِّي القابلية للاستعمار في البلاد المُستعمرة هو الأزمة الفكريَّة، والافتقار للأفكار التي تمنح المجتمع نوعًا من الفاعليَّة الاجتماعيَّة، فلا يُمكن لأي وظيفة أن تتحقق دون أن

تتوفَّر الأفكار الحيَّة التي توجِّه السّياسة والاقتصاد والمجتمع. فالمشكلة تكمن، إذًا، في عالم الأفكار، بَيْدَ أنَّ كل خلل يطرأ على عالم الأشياء والأشخاص هو -بالضَّرورة- نتاج خلل في عالم الأفكار. (بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 2016، صفحة 125)

من خلال ما سبق، يتَّضح جليًّا، أنَّ عالم الأفكار، و، من ثمَّ، الصراع الفكري يُساهم -بقدرٍ أو بآخر- في تشكُّل عُنصُر القابلية للاستعمار في البلاد المستعمرة، ومن الضَّروري التَّنبيه هنا، أنَّ مُصطلح القابلية للاستعمار هو لفظ أفرده المفكِّر مالك بن نبي في كتابه شروط النَّهضة وهو وصفٌ للأبعاد الثَّقافية والاجتماعيَّة في البلاد المستعمرة، ولابدّ أن نفرّق -على الأقل منهجيًّا- بين ظاهرتين ذات بعد اجتماعي سياسي هما: وجود بلد مغزو؛ وبلد مُستعمَر، ففي الحالة الأولى (البلد المغزو) تعكس تركيب أسباب المقاومة المُتمثِّلة في الإنسان والتراب والوقت، والتي تُنتج إنسانًا غير قابل للاستعمار؛ أمَّا في الحالة الثَّانية (البلد المستعمَر) فإنَّ جميع الظّروف الاجتماعيَّة التي تحيط بالفرد تدل على قابليته للاستعمار.

وعليه، فالمعامل الاستعماري، بات -بهذا القدر أو ذاك- يؤثِّر في نشاط الحياة في البلاد المُستعمرَة إذ يؤطِّر الحياة ضمن قالب ضيِّق يُهيئه الاستعمار في كل جُزئيَّة من جُزئياته، خَوفًا من أن تُتَاحَ الفرصة للفرد فتأخذ الفكرة مجراها الطَّبيعي. وهذا الاعتبار، يلخِّص كيف يؤثِّر المستعمِر على الفرد من بعيد، فيخلق منه أنموذَج الكائن المغلوب على أمره الواقع في فخّ القابليَّة للاستعمار. وبالتَّالي، تتحوَّل القابلية للاستعمار إلى مُعامل ينبعث من باطن الفرد الذي يقبل على نفسه تلك الصَّبغَة، فيسير في الحدود الضَّيقة التي رسمها الاستعمار وحدَّد له فيها حركاته وأفكاره وحياته. (بن نبي، شروط النهضة، 2017، صفحة 156)

فالقضيَّة إذًا، حسب مالك بن نبي، أنَّ الاستعمار بات يتصرَّف في طاقتنا الاجتماعيَّة، ودرس أوضاعنا النَّفسيَّة دراسةً عميقة، جعلته يدرك مواضعَ

الضُّعف فيها، وجعلنا بذلك في أتمّ الاستعداد لخدمته بوعيٍ منا أو دون وعي! وسخَّرَنَا لما يُريد كصواريخ موجهة، يُصيب بها من يشاء. وإنَّه لمن المؤسف فعلاً، أنَّنا لا نتصوَّر -أو بالأحرى نَجهل- إلى أي حَدٍّ يحتال علينا، فيجعل منا أبواقًا يتحدَّث فيها، وأقلامًا يكتب بها، إنَّه، ببساطَة، يُسخِّرنا نحن وأقلامنا لأغراضه. والأدهَى والأمر، أنَّنا لم ندرس بعد الاستعمار دراسَة علميَّة، كما درسنا هو، حتَّى أصبح يتصرّف في بعض مواقفنا الوطنية والدِّينيَّة. (بن نبي، شروط النهضة، 2017، صفحة 159)

والحال أنَّ الخلاص من هذه الأزمة نحتاج لحركة بشريَّة ثانيَّة، على غرار الحركة التي بذلها أجدادنا في تحريرنا جُغرافيًّا من الاستعمار؛ تلك الحَركة البشريَّة الثَّانيَّة ستعمل على تحرير عقُولنا من الأوهام ومن القابلية للاستعمار المُستفحلة في وطننا. وعمليَّة تحرير العقل ليست بالأمر الهَيِّن والبَسيط، لأنَّ القابليات تتضاعف داخليًّا في شكل استبعاد واسترقاق كوَّنَ مواطنًا سلبيًّا ومَهزُومًا داخليًّا واتكاليًّا. (بن تومي، 2017، صفحة 14) فهناك على مستوى التخطيط السياسي، وعلى مستوى التَّاريخ مسألة نظريَّة يطرحها العصر الرَّاهن في تحرير المُستعمرات. تقوم هذه الفكرة على ضرورة مُساءلة التَّساؤُل نفسه! عن كيفية تحصيل النُّضج بذاك القدر الذي يفرض علينا القيام بحركة تحرير الوعي الوطني، فنجرؤ على القضاء على الاستعمار الفكري والنَّفسي. والإنسان الذي قرَّر الانخراط في المعركة عليه -أولاً- أو يحدِّد الوسائل والخطط، وينبغي عليه -ثانيا- أن يستعين بالسّلوك والتَّنظيم، وإلاّ فسيكون الأمر اندفاعا أعمى مع ما سيتبعه هذا الاندفاع من المخاطر والانتكاسات. (فانون، 2015، صفحة 34)

يمكن القول في الأخير، ولو على سبيل الجُرأة، أنَّ وصول البلاد المستعمر لهذه المرحلة من الصراع الفكري، والمتمثِّلة في تجلِّي وتفشِّي القابلية للاستعمار، من حيث هي قَبول نفسي واجتماعي لمختلف أشكال الاستعمار، كان سببه الجهل

المستفحل وسط الشعوب العربية والبلاد المستعمَرة تحديدا، ولعلَّ مالك بن نبي، شَخَّص الدَّاء بوضعه لمصطلح القابليَّة للاستعمار والتي لا تزال تداعياتها مُستمرة -بهذا القدر أو ذاك- إلى يومنا هذا. لكن، بأشكالٍ وألوانٍ مختلفة. لهذا، فالرهان اليوم -وقبل فوات الأوان- هو تحرير الألسُن والعُقُول من التّبعيّة الفكرية للآخر المُستعمِر، هذا الأخير الذي لا يزال ينخر في وطننا ومجتمعنا وتاريخنا.

5. خاتمة:

في الأخير، يمكننا القول، بما لا يدع مجالاً للشَّك، أنَّ عالمَ الأفكار كان ولا يزال يُمثِّل بؤرة الصراع والتَّحكّم، أو قُل، إخضاع الشُّعوب المغلوب على أمرها، وسلب خيراتها وثرواتها، ومن ثمَّ، تهديمها اجتماعيًّا ونفسيًّا وفكريًّا بذاك القدر الذي يجعلها عاجزة. ويظهر أيضًا، مَدى خطورة عالم الأفكار على الإنسان وكيف أنَّ الاستعمار استحوذ على حلبة الصِّراع الفكري استحواذًا جعله ينفرد بعالم الأفكار في البلاد المُستعمرة.

ويكشف مالك نبي إذًا، معامل الاستعمار الخارجي من خلال التَّحكم في محطَّات وخطوات الصّراع الفكري؛ ومعامل الاستعمار الداخلي الباطني المُتمثِّل في ظهُور ما يعُرف بالقابليَّة للاستعمار كعامل نفسي اجتماعي يؤطِّر وعي المُستعمَر في البلاد المُستعمرة، من خلال التَّحكم في الأفكار -أولاً- ومن خلال عزل المُكافح الكاتب عن حلبة الصراع الفكري -ثانيًا- وأيضا، تشويه سُمعة المكافح الفكري بتشويه أفكاره ومؤلفاته عبر مرآة الكهف العكسيَّة -ثالثا- كإجراءٍ للحدِّ من خُطورة المكافح والكاتب دون تصفيته وقتله، لأنَّ ذلك حياة لأفكاره وبالتَّالي مساهمتها في الوعي الشَّعبي.

لقد كان الصراع الفكري، ومن ثمَّ، القابلية للاستعمار العامل النَّفسي العميق الذي ساهم في استفحال الاستعمار في البلاد المستعمرة، وهذا إن دلَّ على شيء إنَّما يدل، بما لا يدع مجالاً للشّك، على خُطورة عالم الأفكار على الإنسان

والمجتمع. كما يدل أيضًا، على ضرورة الانتباه لهذا النوع من الحروب الفكرية التي أصبحت مؤخرا أنموذجا للسيطرة على الدول والشّعوب والرَّأي العامّ، عبر تعليب العُقول بالأفكار الميتة والمميتة بتعبير مالك بن نبي. باعتبار أنَّ عالم الأفكار ليس منفصل عن عالم الأشخاص، بل إنَّ مَلحمتها تجري كلها على الأرض حتى أنه لا يُمكننا -مهما حاولنا- أن نفصل فكرة عن صاحبها. والاستعمار يسعى أولا لجعل الفرد خائنًا لمجتمعه الذي يعيش فيه؛ وإن لم يستطع فإنَّه يقلب الخطة عَكسيًّا، فيحاول أن يحقق خيانة المجتمع لهذا الفرد بشتَّى الطّرق الممكنة. ومهما يكن، فنحن لا نختلف في أن بن نبي قد شخَّص الدَّاء وفضح المستُور، رغم أنَّ هناك حقائق يصعب النُّطق بها في عالم محموم بالصراع الفكري ومليء بالقابلية للاستعمار.

6. قائمة المراجع:

1. الإبراهيمي، أحمد طالب، (1972)، من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية، (حنفي بن عيسى، المترجمون) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
2. أندريه، لالاند، (2001)، الموسوعة الفلسفية، (خليل أحمد خليل، المترجمون) منشورات عويدات، بيروت.
3. بليلطة، عبد الحكيم، (2018) المعجم الفلسفي، كنوز الحكمة، الجزائر.
4. بن تومي، اليامين، (2017)، أمراض الثقافة، دار الوطن اليوم، سطيف، الجزائر.
5. بن نبي، مالك، (2013)، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، دمشق سوريا.
6. بن نبي، مالك، (2007)، العفن 1، (نورالدين خندودي، المترجمون)، برج الكينان، دار الأمة، الجزائر.
7. بن نبي، مالك، (2015)، المسألة اليهودية وجهة العالم الإسلامي 2، دار الفكر، دمشق سوريا.
8. بن نبي، مالك، (1969)، إنتاج المستشرقين، دار الارشاد، بيروت، لبنان.
9. بن نبي، مالك، (2017)، شروط النهضة، (عمر كامل مسقاوي، و عبد الصبور شاهين، المترجمون) دار الفكر. دمشق، سوريا.
10. بن نبي، مالك، (1990)، فكرة كومنويلث إسلامي، (الطّيب الشريف، المترجمون)، دار الفكر، دمشق، سوريا.
11. بن نبي، مالك، (2016)، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، (يسام بركة، و أحمد شعبو، المترجمون) دار الفكر، دمشق، سوريا.

12. بن نبي، مالك، (1984)، مشكلة الثقافة، (عبد الصبور شاهين، المترجمون) دار الفكر، دمشق، سوريا،

13. بن نبي، مالك، (2015)، من أجل التَّغيير، دار الفكر، دمشق، سوريا.

14. حاج حمد، محمد ابو قاسم، (2004)، الأزمة الفكرية في الواقع العربي الراهن، دار الهادي، بيروت، لبنان.

15. صليبا، جميل، (1994) المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، لبنان.

16. فرانز، فانون، (2015)، معذبو الأرض، (سامي الدروبي، و جمال الأتاسي، المترجمون) مدارات للأبحاث والنشر، مصر.

17. منظور، ابن، (1303) .هـ .لسان العرب، المطبعة الميرية، القاهرة، مصر.

18. ناصر، راهي قيس، (2017) صدام الحضارات دراسة في جينيالوجيا المفهوم، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، المغرب.

19. النقاري، حمو، (2018) معجم مفاهيم التفلفسف الغربي، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، لبنان.